أولا ـ نسب الحفصيين :

ينتسب الحفصيون إلى أحد شيوخ الموحدين وهو أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني، وهنتانة من القبائل البربرية المصمودية التي سكنت جبل درن بالمغرب الأقصى، وقد وصفها ابن خلدون بانها من أعظم قبائل المغرب جمعا وأشدها قوة[1]، وقد كان لهذه القبيلة دور كبير في حماية الدعوة التومرتية في عهد المرابطين، وكان أبو حفص يعرف بابن فصكة وابن تومرت هو من رفع شأنه وغير إسمه إلى أبي عمر كما يذكر المراكشي[2]، يضاف إلى هذا أن أبو حفص كان من بين العشرة الأوائل الذين بايعوا المهدي بن تومرت في رمضان سنة 515هـ/ 1121م[3]،وقد ظل أبو حفص عمر على إخلاصه لدولة الموحدين وفي خدمتها، مساهما في فتوحاتها في بلاد المغرب ككل، والقضاء على كل التمردات، ومن المقربين أيضا من الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف إلى أن توفي سنة 571هـ/ 1175م[4]، كما ظل أبناؤه من بعده على إخلاصهم لخلفاء الدولة الموحدية ومنهم أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص مستشار الخليفة الناصر الموحدي والذي تكفل بالقضاء على ثورة بني غانية .

بعد القضاء على ثورة بني غانية اضطر الناصر الموحدي في بداية القرن السابع الهجري إلى تعيين أبي محمد عبد الواحد واليا على افريقية 603هـ/1206م لتوخي أي ردة فعل من هذه الأسرة التي استنزفت الكثير من موارد الدولة، بحيث قبل ابو محمد هذا المنصب على مضض بحيث أصلح أمور افريقة ونظمها أحسن تنظيم[5]، ومن هنا يمكن اعتبار ولاية أبي محمد على افريقية أُولى الخطوات لقيام الإمارة الحفصية المستقلة عن الدولة الموحدية .

---

[1] ابن خلدون، تاريخ ...، ج6، ص 461 .
[2] المراكشي، المعجب ...، ص 337 .
[3] الزركشي، مصدر سابق، ص 6 .
[4] ابن الخطيب، الإحاطة ...، ج1، ص 321 .
[5] أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق، محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 2002 م، ص 105، أنظر أيضا، محمد الباجي بن أبي بكر المسعودي البكري، الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط1، تحقيق، محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق، القاهرة، 2012 م، ص 165 .

توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد في سنة 618هـ/1221م، ودفن بقصبة تونس بعد أربعة عشر سنة حكم فيها افريقية بحنكة كبيرة[1]، ليتوجه ولداه أبو محمد عبد الله (عبو) وأبي زكريا إلى افريقية سنة 623هـ/1226م لتولي أمورها بأمر من الخليفة العادل الموحدي، وفور تسلمه الولاية عهد أبو محمد إلى أخيه قابس وما والاها، وإلى أخيه ابراهيم توزر وقسطيلية تمهيدا للسيطرة على الأمر بشكل كلي[2].

1 ـ أبو زكريا يحيى (634 – 647هـ/ 1237 – 1249 م)

وعلى إثر الصراع الدامي على الخلافة الذي نشأ بين العادل والمأمون فقدامتنع أبي محمد من مبايعة المأمون الموحدي، ماجعل هذا الأخير يُحول ولاية افريقية إلى أخيه أبي زكريا[3]، ولم يتقبل أبو محمد الأمر فبادر إلى قتال أخيه فانقلب عليه الجند وسلموه لأبي زكريا الذي أرسله إلى المغرب عبر البحر[4]، لكن الظروف التي كانت يمر بها الموحدون وكذا إقدام المأمون على قتل مائة من أشياخ الموحدين جعلت أبي زكريا يخلع طاعته[5] . ويذكر المؤرخون أن بيعة أبي زكريا كانت في سنة 627هـ/1229م، وبذلك قد أعلن القطيعة التامة مع الموحدين بعد أن محى ألقابهم من السكة والخطبة، ولكن كان عليه الانتظار سبع سنوات صبرا لإعلان نفسه ملكا مستقلا عن الموحدين[6]، ولما ولما حلت سنة 634هـ/1236م حتى أعلن نفسه أميرا للمؤمنين وهي البيعة الثاني التي نالها من أهل افريقية، وبدأ منها عهد الفتوحات إذ ضم إلى حاضرته بجاية وقسنطينة وتلمسان، وهكذا بدأت الوفود تتهافت عليه لمبايعته، حتى من أهل اشبيلية، الذين ضيق عليهم النصارى[7].

2 ـ محمد المستنصر بن أبي زكريا الحفصي (647 – 675هـ/1249 – 1277 م) :

---

[1] ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 105 .
[2] الزركشي، مصدر سابق، ص 21 .
[3] ابن القنفذ، مصدر سابق، ص 107 .
[4] الزركشي، مصدر سابق، ص 23 .
[5] ابن عذاري، مصدر سابق، ج3، ص 265 .
[6] روبار برنشفيك، تاريه افريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 م إلى نهاية القرن 15 م، ط1، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 51 .
[7] سالم كربوعة، الدور السياسي للعلماء بالأندلس في عصري المرابطين والموحدين، 483 – 640هـ/ 1090 – 1242 م ، رسالة ذكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2016 / 2017 م، ص 362 .

تولى الخلافة بعد أبيه أبي زكريا سنة 647 هـ/ 1249م، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالمستنصر بالله خاصة بعد وصول بيعة أهل مكة إليه[1]، وقد شهد أول حكمه خروج أخيه إسحاق عن طاعته سنة 651هـ/1253م، فاستطاع السيطرة على بسكرة وبلاد الزاب من المغرب الأوسط، وانضم إليه العرب فخرج إلى قابس لكنه لم يتمكن من النجاح فاضطرته الظروف إلى الهروب إلى الأندلس، إلى بني الأحمر مشتغلا بالجهاد[2]، ثم تذكر المصادر أنه عاد إلى المغرب متنقلا بين حواضره إلى أن تم اغتياله من طرف ثائر آخر هو أبو الدُعى[3]، وقد شهد عهد المستنصر أيضا إعدام إعدام الأديب والمؤرخ إبن الأبار البلنسي سنة 658هـ/ 1260 م الذي لجأ إلى الحفصيين، وذلك راجع إلى السعايات والمؤامرات داخل قصر الخلافة

3 ـ الواثق يحيى بن المستنصر (675 – 678هـ/ 1277 – 1279 م) :

يذكر الباجي أنه بعد وفاة المستنصر بايع الموحدون يحيى ولقبوه بالواثق فرفع المظالم عن الناس وصرف همته لإصلاح جامع الزيتونة وغيره وأفاض العطاء، لكن بطانته فسدت انقلبت عليه باستبداد وزيره ابن الغافقي، فبلغ ذلك عمه أبا إسحاق فسار من الأندلس سنة 677هـ/ 1278م واستولى على بجاية،فانفض الموحدون على الواثق، وخُلع إلى أن قُتل في حبسه سنة 678هـ/1279م.

4 ـ أبو إسحاق إبراهيم الأول (678 – 683هـ/ 1279 – 1284 م) :

عاد أبو إسحاق من منفاه بالأندلس ودخل بجاية بتدبير من أهلها وبايعوه بالإمارة، وبدأ يُعد العدة لاسترجاع الخلافة من ابن أخيه الواثق، فتقدم إلى تونس مسيطرا عليها فلم يجد الواثق بدا من مقاومته لخلو عاصمته من الجند المدافعين عنها، فتناول على العرش لصالح عمه، فبويع أبو إسحاق في ربيع الثاني 678هـ/ 1279 م[4]، وكانت أولى خطواته بعد أن تسلم الحكم الاعتماد على الأندلسيين في

[1] ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 135 ، أنظر أيضا، ابن القنفذ، مصدر سابق، ص 137 ، ويذكر برنشفيك أن الفراغ الروحي الذي تركه سقوط الخلافة العباسية في المشرق على يد المغول حتم على أهل مكة إيجاد بديل للم الشمل فاتصل هؤلاء بالدولة الجديدة الناشئة ...، أنظر، روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج1 ، ص 76 .

[2] ابن القنفذ، مصدر سابق، ص 118 .

[3] نفسه، ص 143 .

[4] روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج1 ، ص 106 .

بلاطه بحكم علاقته السابق معهم، إضافة إلى الموحدين الذسن ساندوه في حكمه خاصة من قبيلة هنتانة[1].

ثانيا ـ نظام الحكم :

إحتفظ الحفصيون بكثير من تقاليد الموحدين في نظام الحكم ، حت أن لقب الشيخ والسيد ظل هؤلاء محتفظين به طيلة فترات الدولة، وقد تلقب هؤلاء في أول أمرهم مع أبي زكريا بلقب الأمير، ولم يعرف هؤلاء لقب الخليفة إلا مع الأمير الثاني المستنصر كما رأينا .

وسار الحفصيوم على نظام ولاية العهد كما في الدول الأخرى إذ يعهد الوالد لإبنه من بعده بالخلافة، وإن حدث العكس ولم يولي الخليفة أيا من أبنائه يتولى أهل الرأي والمشورة البت في هذا الأمر كما حدث مع أبي البقاء خالد الثاني 770 – 772هـ بعد وفاة ابن إسحاق إبراهيم بن أبي بكر دون توليه العهد لأحد[2]، وازدادت أهمية الخلافة الحفصية بعد تهاطل المبايعات من المغرب والأندلس منتصف القرن السابع الهجري.

كما عرف النظام الحفصي هيئة أشياخ البساط وهم هيئة استشارية من الحفصيين المقربين من الخليفة، وجميعهم من قبيلة هنتانة، واشتمل أيضا على أهب الرأي من الموحدين والطلبة على شاكلة الدولة الموحدية، والذين كان لهم رأي في اختيار ولي العهد[3]، كما عرف النظام الحفصي لقب شيخ الدولة وكبير الدولة والشيخ الرئيس وهوأشبه مايكون في أيامنا هذه برئيس الوزراء[4]، وقد تولى هذا المنصب أحد شيوخ هنتانة وهو أبا سعيد عثمان بن محمد الهنتاني المعروف بالعود الرطب (ت 673 هـ)، وشيخ الدولة محمد المزدوري الذي أخذ البيعة للسلطان الحفصي أبي يحيى زكريا المعروف باللحياني لطول لحيته (711 – 717 هـ)[5].

[1] روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج1، ص 111 .
[2] الزركشي، مصدر سابق، ص 104 .
[3] ابن القنفذ، مصدر سابق، ص 152 .
[4] احمد مختار العبادي،
[5] أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص 183 .

وكان للأندلسيين دور كبير في إدارة الدولة فقد تولو مناصب هامة وعملوا على تطوير دواوين الدولة، أما عن وزراء السلطان الحفصي فقد كانوا ثلاثة وهم وزير الجندوهو بمثابة الحاجب بمصر، ووزير المال وهو امعروف بصاحب الأشغال ووزير الفضل وهو كاتب السر، وكان شيخ الموحدين المذكور سابقا ينوب عن الخليفة في غيابه، ويجلس بين يديه في مجالسه مع أشياخ الرأي والمشورة، وله النظر في الولايات وقيادة الجيوش أثناء الحروب[1] .

ثالثا ـ سقوط الدولة الحفصية :

كان لاستنجاد السلطان الحفصي الحسن (932 – 950هـ/ 1526 – 1543م) بالملك شارلكان ملك اسبانيا ضد إخوانه من الدين الأتراك أثره في ضعف وسقوط السلطنة الحفصية، فانتهز الفرصة للحيلولة دون سيطرة الأتراك على الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث تمكن من دخول تونس وفر خير الدين إلى الجزائر حيث ساهم الأعراب ومن ورائهم الحفصيون في انهزامه في حلق الوادي بتونس[2]، حتى أن الاسبان انقلبوا على الأهالي بحيث بدؤوا في المجازر التي راح ضحيتها الكثير[3]، كما أن الملك الاسباني عقد اتفاقية مع الحسن الحفصي بموجبها تتاح الحرية للمسيحيين في تونس وأن يتملك شارلكان مدن عنابة وتونس وحلق الوادي وغيرها من الشروط وأي إخلال بهذه البنود ستكون نتائجه ضياع ملكه[4]، وبموجبها دخلت السلطنة الحفصية تحت الحماية الاسبانية، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الحسن أراد معاونة شارلكان في حربه مع فرنسا وتوجه بجيش من المرتزقة الى اسبانيا لكن في الطريق وصته الأنباء عن انقلاب إبنه أحمد أمير عنابة عليه، حيث بايعه الحفصيون[5].أما الحسن فقد عان ماتبقى من حياته حيث سُملت عيناه من قِبل إبنه، وبقي متنقلا بين أضرحة الأولياء إلى أن توفي سنة 950هـ/ 1543م ومما أنشده قائلا في حاله:

---

[1] شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مج 4، ط1، تحقيق، كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010 م، ص 72 .

[2] ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 165 .

[3] أنظر تفاصيل هذا ، الباجي المسعودي، مصدر سابق، ص 202 .

[4] محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2012 م، ص 133 .

[5] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان ، ج2 ، تونس، 1963م، ص 14 .

وكُنا أُســودا والرجال تهابـــنا أتانا زمان فيه نخـــشى الأرانبا[1]

ورغم التقارب الذي أبداه أحمد الحفصي (950 – 977هـ/ 1543 – 1569 م) من العثمانيين ومع واليهم درغوث باشا لطرد الحاميات الاسبانية المتواجدة في سواحل تونس وليبيا إلا أن الشك كان يراود أحمد من نوايا التراك في السيطرة على كامل هذه المنطقة، والدليل على ذلك هو انهزامه من طرق القوات التركية التي هاجمته من الجزائر بقيادة علي باشا[2]، وعاود أحمد التصال بالاسبان للاستنجاد بهم لكنهم فرضوا عليه شروطا لم يقبلها، وعلى إثرها فر إلى صقلية وبقي بها إلى أن توفي[3]

خلف أحمد الثاني أخاه محمد (977 – 981 هـ/ 1569 – 1573م) وهو آخر أمراء الدولة الحفصية، حيث تميزت فترة حكمه بالإضطراب الأمني الكبير بحيث سيطرت الحاميات الاسبانية على مدن الساحل الافريقي، وفي أحداث طويلة حول معركة حلق الوادي تمكن الأتراك بقيادة سنان باشا من القضاء على الحامية العسكرية الاسبانية وتخليص تونس من التواجد الاسباني، أما مصير لأمير محمد فقد حمله سنان باشا معه معتقلا إلى اسطمبول وظل هناك إلى أن توفي، أما تونس فقد دخلت مرحلة جديدة من الحكم العثماني ابتداء من سنة 981 هـ/ 1573 هـ[4].

[1] ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 158 .
[2] ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج2، ص 17 .
[3] ابن أبي دينار، مصدر سابق، ص 165 .
[4] محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1406هـ/ 1985 م، ص 734 .